قصة مترجمة

● يعتبر « نور مراد ساريا خنوف » (١٩٠٦ ـ ٤٤) من الرعيل الأول من الكتاب التركمان ، ولد من أبوين فقيرين ، واستفاد هو ومن على شاكلته من قيام الثورة التي كانت تعني في نظرهم : محوا للأمية والتعليم . ولما تخرج من مدرسة ، أشتغل بادء ، بمختلف الفنون . استكمل دراسته في الجامعة الآسيوية المركزية . وقصة « المخطوطة » تكاد تكون ، إلى حد كبير ، ترجمة ذاتية للمؤلف . وعندما اندلعت الحرب ، اشترك « نور مراد » في المعارك التي دارت رحاها في « أوكرانيا » و « مولدافيا » ، وقتل وهو يحارب . وكان ذلك يوم ٤ مايو ١٩٤٤ ، ودفن في « مولدافيا » . وقد بدأ الأدب التركماني في الظهور في القرن ١٨ ، وكانت بدايته في الشعر ، والرعوي منه بصورة خاصة . وكان على رأس مؤسسيه الشاعر « مختوم كولي » (١٧٣٠ ـ ٨٥) ـ وبعد توحيد القبائل التركمانية ، وهو ما دعا إليه « مختوم » ، وصارت جمهورية ، وبعد انتشار الطباعة ، طرق الأدب التركماني مختلف المجالات ولم يحصر نفسه في الشعر فحسب

(المترجم)

المخطوطة

للقصصي التركماني
نور مراد ساريا خنوف
ترجمة عبد الحميد سليم

كانت مهمتي شراء مخطوطات قديمة لمعهد الدراسات الأدبية التابع لأكاديمية العلوم التركمانية : قادتني هذه المهمة إلى نجع في قلب صحراء كراكوم ، يقوم أهله بتربية الأغنام . نزلت ضيفا على رئيس المجمع الزراعي الذي دلني على أن جاره « قيلمراد أغا » يقتني مخطوطة نادرة ، فلما توجهت إليه وجدته رجلا مسنا ، لحيته جميلة ، إذا تحرك فكه بالكلام كانت أشبه بالمروحة . ولما عرف مهمتي ، تطلع إلى متفرسا وقال لي مشفقا عليّ من البرد : « تعال ، اجلس بجوار النار لتدفأ » ، ثم سألني عن مولدي ومن أي قبيلة كنت وعملي ، فلما عرف أن مهمتي عمل مسح للمخطوطات النادرة ، انفرجت أساريره وعبث في لحيته الطويلة ثم التفت إلى زوجته وقال لها : « اعطني المخطوطة » ، وفي هدوء ، أخرجت مخطوطة ضخمة ملفوفة في شال حريري مطرز ، وفي وقار ، سلمتها لزوجها ، الذي قبل أن يسلمها لي قال : « لو كنت حقيقة الشخص المتخصص الذي تدعيه فستدرك أن هذه المخطوطة كنز . »



كانت المخطوطة عربية ثقيلة الوزن مجلدة بقماش قطني باهت محلى برسوم زهور حمراء تآكلت . تصفحتها ، وأيقنت أنها ضالتي التي أنشدها ، أخذت أفكر كيف يمكنني الحصول عليها ، وكان من الواضح أن الرجل العجوز لن يبيعها لي ، بعد أن ذكر لي في حديثه معي أن زوجته وعشيرته وقبيلته جميعا يعتزون بها .

انصرفت من عند « قيلمراد أغا » مصمما على أن أسأل مضيفي رئيس المجمع الزراعي كيف يمكنني أن أحصل على المخطوطة ولم أخف عنه إحساسي بأن الرجل العجوز قد لا يسمح لي باستنساخها ، فكان جوابه : « فكر في الوسيلة التي تستطيع أن تحصل بها على المخطوطة ، وسأبذل جهدي في مساعدتك ما استطعت » .

عدت في المساء إلى « قيلمراد أغا » فرحب بي بحرارة وقال لي : « توقعت عودتك ، لأن من يشاهد كنزي يعود إليه مرة أخرى » ، ثم ناولني المخطوطة وقال لي : « اقرأ ما تريد قراءته » .

فكرت فيما سأقوله بعد ذلك . سألته : « كم سنة مضت على امتلاكك للمخطوطة ، فأجابني أربعون سنة ، فعقبت على ذلك قائلا : إن هذا هو السبب في أنه يحفظ بعض القصائد عن ظهر قلب (وهذا ما لاحظته عند أول لقاء لي به) واستطردت قائلا ، إنني لا أستبعد أن يكون قد حفظ المخطوطة كلها ، فأكد على قولي ، فانتهزت الفرصة وسألته : « إذن لم لا تبيعني مخطوطتك ؟ » وما انتهيت من سؤالي حتى اتسعت عيناه وتوتر وشحب لونه ، وفزعت زوجته وسحب مني المخطوطة ، وقال لزوجته : « أعيديها إلى مكانها على الفور » ، وبعد أن هدأ روعه قال لي : « يابني ، ألم أقل لك إنني وعشيرتي في هذا النجع لن نفرط فيها أبدا ؟ » واستطرد : « أنت لا تعرف كيف حصلت على المخطوطة ، إنها قصة لا يعرف بها أحد سواي وامرأتي ، ولكني سأرويها لك . » :



« أنا الآن في الخامسة والستين من عمري . أما السنة التي حصلت فيها على المخطوطة فكانت تعرف « بالسنة الباردة » . كنت وقتها غنامًا ، كما هو حالي اليوم ، ولم تكن لي فكرة عن الكتب . كنت قد تزوجت واستقررت في خيمة أملكها ، ثم اشتريت ناقة . ولما كنت رب أسرة ، قررت أن أتوجه إلى « أركاش » لأشتري شوالين من القمح للشتاء . حملت ناقتي بالصوف وحزمت بعض الخشب لأحوله إلى فحم . وانطلقت إلى « أركاش » ، ولما لم أكن أعرف أحدًا فيها ، أقمت مع الشخص الذي ابتاع صوفي وفحمي ، وكان رجلًا ميسورًا . وقرب المساء ، بدأ رجال النجع يتجمعون في داره ، وبينما كنا جلوسًا ، دخل علينا شخص مهيب يدعونه « الملا » ، فطلب منه أحد الحاضرين أن يقرأ لهم كتابًا ، ولكنه اعتذر ، فلما وعده واحد منهم بهدية قبل ، فناوله مضيفي مخطوطته هذه التي كانت بين يديك من لحظات ، ليقرأها على الناس ، فظل يقرأ فيها حتى انتصف الليل ، ثم استأنف قراءتها حتى الفجر ، والكل منصت إليه وكأن على رءوسهم الطير . تحمست لشراء المخطوطة . وفي صباح اليوم التالي ، سألت مضيفي عن ثمن المخطوطة التي كان يقرأ منها « الملا » ، فقال لي وهو يضحك ـ ولعله كان مازحًا ـ « ناقة جميلة » ، فلم أجادله القول ، وكنت بالغ الغبطة ، وبلا تردد أعطيته ناقتي الجميلة ، رغم أنها كانت ستلد بعيرًا ، وألقيت نظرة أخيرة على ناقتي ، ودسست المخطوطة في أرديتي ، وقفلت راجعًا إلى نجعي . واستغرقت مني رحلة العودة ثلاثة أيام . ولما عدت إلى امرأتي صاحت بي قائلة : « أين ناقتنا ماذا فعلت بها ؟ » ، فأجبتها إن ناقتنا الأصيلة أتت بثمر عجيب ، ثم أريتها المخطوطة وقلت لها « إن كل كلمة فيها تساوي أكثر من ناقة أصيلة » فكان ردها : « لقد أعطيت الناقة بلا مقابل ! لقد كانت كل ما نملكه في الدنيا » .

« ازددت أسفًا على ما فعلته ، واحترت فيما أفعله بالمخطوطة ، فنصحني معارفي بمقابلة حكيم النجع ، ففعلت وذكرت له قصة شرائي للمخطوطة ثم سألته أن يدلني على شخص يقرؤها لي ، فسألني في دهشة عن ماذا تفيدني قراءتها ، ولم أعرف منه من يمكنه قراءتها لي . جبت النجوع المجاورة على مدى سبع سنوات دون أن أجد قارئًا فيها يقرؤها لي ، وذات يوم ، ونحن نتناول الشاي ، قالت لي امرأتي : « رجال العلم هم وحدهم الذين يعرفون القراءة ، لماذا لا تبعث ابننا « مرادجان » ليتعلم القراءة على يد واحد من هؤلاء الحكماء حتى يمكنه قراءة المخطوطة لنا . واستقر رأينا على أن نبعث به إلى « آكشي إحسان » ليتعلم القراءة والكتابة .

« أخذت ابني ، وكان في الثامنة من عمره إلى « آكشي إحسان » وطلبت منه أن يعلمه القراءة والكتابة ، وقلت له إنه طوال بقائه معه سيكون خادمًا له ، فوافق ، وطلب مني أن أعود لتسلمه قارئًا كاتبًا بعد أربع سنوات . ومرت سنوات ثلاث ، فذهبت أتنسم أخبار ابني ، فلما رآني رجاني أن أعود به ، مؤكدًا لي أن معلمه جاهل وهو نفسه لا يعرف القراءة والكتابة ، فلم أصدقه ، ولكني لما تحريت الأمر من جيرته ، أكدوا لي صدق مقولة ابني ، ولما سألت عن سبب شهرة « آكشي إحسان » قالوا إن هذه الشهرة تكمن في نفوذ أسرته التي تروى عنها هذه المعجزة : سرق فلاح حزمة من شعير أحد أفراد أسرة « آكشي احسان » ، فلما عاد السارق بالحزمة إلى داره ، لم يستطع أن ينزلها من على ظهره ، فطلب من ابنه أن يساعده ، ولكن بلا جدوى ، وطوال الليل ذرع النجع جيئة وذهابًا والحمل على ظهره لا يستطيع الخلاص منه ، فرأى أن يتوجه إلى مالك الشعير ويعترف له بفعلته ، فذهب إليه واعترف بجرمه ، ورجاه أن يرفع الشعير عن ظهره ، فصفح عنه ، وبعث بالشعير المسروق إلى المكان الذي سرق منه ، وقيل أيضًا أن أحد أجداد « آكشي إحسان » كان ساحرًا ، وتوارث عنه أحفاده مهنة السحر ، وكانت قوة « إحسان » تكمن في الملح ، لو نفخ فيه بكلمات سحرية لأنجب الزوجان العقيمان ، ولشفى المريض من مرضه . فلما سمعت كل هذا ، عدت بابني إلى نجعي .

« ومرت سنوات ، حتى جاءت الثورة الثقافية التي عمت البلاد ، فبعثت بالمعلمين وبالكتب إلى النجوع وجاء نجعنا معلم أطلعته على مخطوطتي ، فلما فحصها قال لي إنها من أنفس المخطوطات التركمانية ، وطلب مني أن أبعث بابني إلى المدرسة ليتعلم القراءة والكتابة ، ولكن ابني رفض الذهاب إليه ظنًا منه أنه على شاكلة « آكشي إحسان » ، ولكني أقنعته بأن هذا المعلم بعثت به الحكومة ، فانخرط في سلك الدراسة وهو اليوم يدير مزرعة لتربية الأغنام في الحي المجاور لنا . وعندما أتقن ابني القراءة استخرجت المخطوطة من أسفل الزكيبة وقرأها لنا ولعشيرتنا من بدايتها حتى نهايتها » .

ولما كان الوقت قد جاوز منتصف الليل عندما انتهى رفيقي العجوز من سرد قصة مخطوطته ، استأذنته في طبع المخطوطة في « أشخاباد » حتى يقتني كل فرد في النجع نسخة من هذه المخطوطة الثمينة ، ولكنه رفض أن تغيب عنه المخطوطة يومًا واحدًا كما رفض أن يبيعها لي ، ثم اشفق علي في النهاية وقال : « إذا كانت قد جذبتك مخطوطتي ، فاجلس واستنسخها » ، فقبلت دعوته شاكرًا ، وقضيت أسبوعين في خيمته أنسخ المخطوطة النفيسة ، وكان يقضي معظم الوقت بجواري ، وأحيانًا ما كان يملي علي من الذاكرة ، وأحيانًا كان يتطلع إلي وأنا أنسخ ، وكثيرًا ما كان يقول لي « لقد تعلمت أن أقرأ اليسير ، ولكني عجزت عن تعلم الكتابة » . وكانت زوجته لا تفتر عن تقديم الشاي الأخضر والكعك والجعة حتى صرنا أصدقاء . ولما انتهيت من استنساخ المخطوطة شكرت لهما حسن ضيافتهما لي وسماحهما لي باستنساخ المخطوطة .

بقي لي أن أذكر للقارئ أن هذه المخطوطة لم تكن إلا ديوان قصائد ألفها « مختوم كولي » ، وكان شاعرًا مجيدًا يعد من مؤسسي الشعر التركماني الكلاسيكي ●